المحاضرة الرابعة

تمهيد :

يمثل البحث الاستطلاعي أحد صور البحث الاجتماعي، ويقف بمثابة حلقة أولى في سلسلة الحلقات التي تنقسم إليها هذه الصور المتباينة للبحث الاجتماعي، ويتخذ هذا النوع من البحوث وضعا متميزا بين غيره من البحوث الاجتماعية استنادا .

- **أولا :** إلي مجموعة الأهداف التي يختص بتحقيقها دون غيره من أنواع البحوث الأخرى ،
- **وثانيا:** أهميته الجوهرية في ميدان النظرية الاجتماعية
- **وثالثا:** إلى اعتماد أنواع البحث الاجتماعي الأخرى عليه.

وتأسيسا على هذا التمايز في الأهداف والأهمية للبحث الاستطلاعي، ينفرد هذا النوع من البحث باعتماده علي مجموعة من الإجراءات المنهجية التي تعينه علي تحقيق هذه الأهداف وتأكيد تلك الأهمية. حيث يعتمد البحث الاستطلاعي علي أساليب مسح التراث أولا، ثم يفيد من عملية استشارة ذوى الخبرة، وأخيرا يجرى دراسة حالة متعمقة لبعض الحالات المفيدة في هذا الصدد.

والواقع أن التطور في نطاق البحث الاجتماعي عموما وأنواع البحث الاجتماعي بوجه خاص الذى نشهده اليوم .، قد انعكس علي تلك الاساليب المنهجية، وأضاف إليها أبعادا جديدة أسهمت في توضيح طبيعة كل إجراء منهجي منها، وتنوع الوسائل التي يفيد منها وكيفية تطويعه لأهداف البحث الاستطلاع.

ولهذا خصصت الفصل الحالي لمناقشة الكيفية التي يمكن بها تصميم البحث الاستطلاعي من خلال توضيح طبيعة هذا البحث وعلاقته بالبحوث الاجتماعية الأخرى والإجراءات المنهجية التي ينبغي اتباعها في تصور التصميم المنهجي له ، والإشارة إلي بعض الأمثلة التطبيقية في إجراء البحوث الاستطلاعية.

أولا: البحوث الاستطلاعية بين البحوث الاجتماعية الاخرى

توضح العناوين التي وضع تحتها هذا النوع من البحوث، الاستطلاعية والاستكشافية (Expiratory) طبيعة هذه البحوث وتبين أن التركيز الأساسي لها ينصب على اكتشاف الأفكار الجديدة والاستبصار المتباينة التي تعين على فهم المشكلة المدروسة في البحث . وهذا التوصل إلي الاستبصارات أو بلورة فروض، دون محاولة اختبار هذه الفروض أو حتي التدليل على صحتها. والواقع أن هذا التحديد للبحث الاستطلاعي يمكن أن يفيدنا في توضيح علاقة البحث الاستطلاعي بالبحوث الاجتماعية الأخرى، فإذا كانت هذه البحوث الاستطلاعية تختص بمهمة استكشاف الفروض فإنه يمكن النظر إلى هذه البحوث الاستطلاعية باعتباره أول خطوة في سلسلة البحث الاجتماعي ، وأن هناك أنواع أخرى من البحوث تنصرف باهتمامها نحو اختبار إمكانية تطبيق أو التحقق من صحة وسلامة تلك الفروض التي قامت الخطوة الأولى في البحث – ونعنى البحث الاستطلاعي- ببلورتها.

وعلى هذا ينظر إلي البحث الاستطلاعي في ذاته باعتباره خطوة أساسية بين مجموعة خطوات أخرى تنطوي عليها عملية البحث الاجتماعي المستمرة، ويتوقف العمل في مراحل البحث الأخرى التي تلى الدراسات والبحوث الاستطلاعية، وخاصة

الاختيار الواعي للمناهج التي يعتمد عليها في البحوث الأخرى، في جانب كبير منه، علي البداية الصحيحة والملائمة التي يخطوها البحث الاستطلاعي، كما يتوقف علي فعالية هذه الخطوة في التغلب عاي المشكلات والصعوبات التي قد تواجهها تلك المجموعة من البحوث الأخيرة .

ثانيا: أهداف البحث الاستطلاعي وأهميته

تهدف الكثير من البحوث الاستطلاعية إلي بلورة مشكلات تحتاج إلى بحوث أكثر دقة فيما بعد. كما تهدف هذه البحوث الاستطلاعية إلي بلورة بعض الفروض حول هذه المشكلات، ولكن هذا لا يمنع من أن يكون للبحث الاستطلاعي بعض الوظائف الأخرى، حيث أنه قد يهدف إلى زيادة ألفة الباحثين بالظواهر التي يرغبون في تعميق دراستها بإجراء بحوث آخري أكثر دقة في مواقف يطلون لإجراء بحوثهم المستقبلية حولها، وكذلك قد يهدف البحث الاستطلاعي إلى توضيح بعض المفهومات ، فضلا عن أنه يهدف إلي تحديد الأولويات بين الموضوعات التي تحتاج بحوث مستقبلية أو قد يهدف كذلك إلي جمع معلومات تتعلق بالإمكانيات الفعلية اللازمة لإجراء بحوث علي مواقف الحياة الواقعية، وكذلك قد يهدف البحث الاستطلاعي إلى إحصاء المشكلات التي قد ينظر إليها المشتغلون بأحد الميادين الاجتماعية باعتبارها مشكلات ملحة تحتاج إلي بحث فورى.

وتفرض ظروف الحداثة النسبية التي تميز علوم المجتمع وكذلك ندرة البحوث الاجتماعية ، ضرورة إجراء المزبد من مثل هذه البحوث الاستطلاعية، ولهذا فإن البحوث الاستطلاعية، ستظل تلعب دور الريادة في مجال البحث الاجتماعي لفترة طويلة، ذلك لأن الباحثين في مجال العلوم الاجتماعية يواجهون بعض الصعوبات خاصة تلك المتمثلة في طابع العمومية الذي لازال يميز النظرية في هذه العلوم والذي يحتاج إلي توفير مزيد من الشواهد والأدلة الواضحة من خلال البحث الإمبريقى، ويحتل البحث الاستطلاعي في إطار هذه الظروف مكانة هامة وذلك بفضل ما يعاق عليه من أهمية في توفير تلك الخبرة الواقعية التي ستكون لها فائدتها في بلورة الفروض المناسبة والتي تحتاج إلى بحوث أكثر تعمقا بعد ذلك، فلنفرض مثلا أن لدينا اهتماما بالتوصل إلي قدر من الفهم والاستبصار بالعمليات التي تؤثر من خلالها البيئة الاجتماعية في الاضطرابات السيكولوجية وبالرغم من توفر الكثير من الكتابات التأملية حول هذا الموضوع .

وكذلك وجود بعض البحوث الواقعية ذات الصلة غير المباشرة بهذا الموضوع، فقد يجد القائمون بالبحث الذين يدخلون إلي هذا المجال أنفسهم في موقف لا يسمح لهم بتقديم أية فروض دقيقة تتصل بهذا البحث .

وتصبح هذه المهمة شاقة وصعبة المنال إذا أقدموا على هذا العمل بدون تسلحهم ببعض المعرفة المتعلقة بهذا المجال والمرتبطة بالمتغيرات الاجتماعية الرئيسية التي تؤثر في الاضطرابات السيكولوجية، وكذلك المعرفة التي تدور حول المواقف التي تحدث فيها مثل هذه المتغيرات. ولهذا توصف كل محاولة مسبقة في هذا المجال لبلورة بعض الفروض بالسذاجة، ومن ثم تكتسب الدراسة الاستطلاعية أهميتها في هذه المواقف التي يدور فيها البحث حول مشكلات لم يتوافر بصددها القدر الكافي من المعروفة بحيث يكون من المناسب تناول هذا النوع من المشكلات استنادا إلى إجراءات البحث الاستطلاعي .

ومن المؤسف مع هذا ان نجد هناك بين المشتغلين بالبحث الاجتماعي اتجاها للتقليل من أهمية البحوث الاستطلاعية والنظر إلي البحوث التجريبية علي أنها تمثل النوع الوحيد من البحث الذي يكتسب صفة العلمية. والواقع أنه إذا كان للبحث التجريبي قيمة نظرية أو اجتماعية فإن هذه القيمة مستمدة من توفر مجموعة من القضايا الأعم من تلك التي تتناولها التجارب والتي

يمكن استخلاصها من خلال الكشف المدقق عن أبعاد المشكلة وزيادة الاستبصار حولها، وهذا ما يختص به البحث الاستطلاعي.

ولقد أشار نورث روب (north rop) إلى أنه كثيرا ما ينغمس الباحثون في تناول موضوعات دراساتهم ، ويرسلون الاستبيانات، ويجمعون كما هائلا من المعطيات، أو حتي قد يجرون تجارب توصلهم في النهاية إلى مجموعة نتائج لا تحقق الأهداف التي يسعون إليها بقدر ما تثير في نفوسهم التعجب والتساؤل عن ما الذى يبرهن عليه كل هذا الجهد، كما قد يتأثر البعض الآخر بمدى النجاح الذى يحققه منهج علمي معين في أحد الميادين ثم يتسرعون في تطبيق هذا المنهج بدون تيقين من جانبهم بطبيعة هذا المنهج ، الأمر الذى يوصلهم إلى نتائج أخري قد يقفون إزاءها متعجبين . وتدل كل هذه الخبرات على أنهم قد أخذوا في الشروع في البحث وأقدموا على هذا الجهد دون حرص منهم على تقدير أهمية البحوث الاستطلاعية التي يمكن أن يتجنب معها الباحثون كل هذا التعجب والدهشة ، باعتبار هذا النوع من البحث قد يعيننا فى التعرف على إمكانية الاستفادة من تلك الاجراءات المنهجية قبل الاعتماد عليها فى البحث .

ثالثاً: الاجراءات المنهجية فى تصميم البحث الاستطلاعى:

هناك عدد من الإجراءات المنهجية المحدودة التي اتضح انها أكثر إثماراً في التعرف على المتغيرات الهامة وفى التوصل إلى الفروض ذات المغزى والاهمية ، أو بعبارة أخري ، هناك بعض الاجراءات المنهجية التي تسهم في مساعدة البحث الاستطلاعي على تحقيق أهدافه ، والقيام بدوره في نمو المعرفة ، ولذلك من المتوقع أن تشمل كل محاولة لوضع استراتيجية منهجية للبحث الاستطلاعي أو اختيار الاجراءات المنهجية في تصميم هذا النوع من البحث ، على مثل هذه الاجراءات المنهجية .

وتشتمل هذه الاجراءات المنهجية على :

١. مسح تراث العلم الاجتماعي الذي له صلة بالموضوع المدروس ، وكذلك جوانب التراث الأخرى التي تسمح لنا باستخلاص نتائج تلقى الضوء على هذا الموضوع .
٢. مسح الخبرات العلمية بين الأشخاص الذين اهتموا بالمشكلة موضوع الدراسة .
٣. دراسة بعض الحالات التي تثري من فهمنا وتزيد من استبصارنا بالمشكلة المدروسة .

وقد تستفيد معظم الدراسات الاستطلاعية من واحد أو أكثر من هذه الاجراءات المنهجية في وقت واحد. ولكن مهما كان الإجراء المنهجي المستخدم والمختار في هذه الدراسة فإنه ينبغي أن ينطوي هذا الاستخدام على قدر من المرونة ، حيث أنه من الضروري مع كل تغيير يطرأ على المشكلة المدروسة من حالة كانت تتسم فيها المشكلة بالغموض في البداية إلى حالة تكتسب فيها المشكلة معنى أكثر دقة ، من الضروري أن تتغير أيضا إجراءات البحث لتناسب جميع المعطيات التي تسمح ببلورة الفروض المتعلقة بهذه المشكلة ، والتي تعيين في الوقت نفسه على أخذ الجوانب المتباينة للمشكلة المدروسة في الاعتبار.

١- مسح التراث:

تستند أهمية عملية مسح التراث إلى المكانة المتميزة التي يضيفها هذا العمل على الباحثين ، ذلك لأنه كلما ذاد مقدار ما يعرفه الباحث من نتائج البحوث ذات الصلة بدراسته ، زادت قدرته على تناول مشكلته وإلقاء الضوء عليها. وتهدف هذه

العملية عموما إلى إعادة النظر مرة ثانية فيما هو متاح من تراث (التقارير التي أعداها أخرون) في الميدان المتعلق بموضوع البحث أو حتى في ميدان أخر يمكن أن تثري فهمنا بهذا ا لموضوع.

ولعملية مسح التراث أهداف عديدة ، فهي تساعد الباحث وتعيينه على تناول مشكلة بحثه ، باعتبارها محوراً لكل جهود البحث ، ذلك أنه في اللحظة التي يكون فيها الباحث قد اختار مشكلة معينة فإنه ينبغي أن يتجه بكل جهده نحو البحث عن حل لهذه المشكلة . ويساعد وقوف البحث على ما قام به غيره من جهد في هذا الصدد ، على مده بالاستبصار والمعرفة المناسبة التي تعينه على تناول هذه المشكلة . **ويمكن لمسح التراث أن يفيد الباحث من النواحي التالية :**

- يمكنه من الكشف عن النتائج التي توصل إليها باحثون سبق أن تناولوا هذه المشكلة وتوضيح كيفية معالجتها لما ينطوي عليها هذه المشكلة من مواقف.
- يمكنه من الإشارة إلى المنهج أو الطريقة التي يمكن بها معالجة موقف المشكلة كما يمكن أن تقترح عليه أساليب التغلب على الصعوبات المماثلة التي يحتمل أن تواجهه .
- يمكن أن يوضح للباحث مصادر المعطيات أو البيانات التي قد لا يعلم عن وجودها شيئا.
- يمكن أن يعرفه بالباحثين الذين يشهد لهم بالكفاءة والأهمية ، والذين قد يعلم الباحث عن جهودهم في البحث أي شيء.
- يساعد الباحث على أن يكون نظرة تاريخية مقارنة بمشكلة بحثه من خلال ربطها بالمحاولات السابقة التي تناولت نفس المشكلة أو مشكلة شبيهة .
- يمكن أن يمد الباحث بأفكار جديدة ومداخل لم يسبق له العلم بها .
- يمكن الباحث من تقييم جهوده في البحث بالمقارنة بينها وبين الجهود المماثلة الأخرى ذات الصلة .

وعموماً تنحصر مهمة مسح التراث في الوقوف على النقاط التي انتهى إليها الأخرون قبلنا ، والتعرف على أهم أوجه النشاط التي كانت تشغلهم .

ولهذا كله ، تعتبر عملية مسح التراث والتأسيس على الجهود التي قام بها بالفعل باحثون أحرون من بين أهم الطرق التي يمكن من خلالها الاقتصاد في الجهد المبذول في أي بحث . وفى الدراسة من النوع الذى نناقشه هنا ينصب المسح على الفروض التي يمكن أن تؤدى إلى بحوث أخرى في المستقبل . وهذه الفروض يعبر عنها صراحة باحثون سابقون في كتاباتهم المختلفة. ومن ثم فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في عملية جمع تلك الفروض المتباينة والتي سبق التوصل إليها وذلك حتى يمكن تقييم فائدتها كأساس لإجراء بحوث أخرى في المستقبل ، والنظر في إمكانية أن تساعد هذه الفروض على بلورة غيرها من الفروض الجديدة ، خاصة وأنه كثيراً ما تهتم البحوث الاستطلاعية بالمجالات التي لم يتم بعد بلورة فروض حولها ، ولذلك فإن مهمة مسح التراث هنا تنحصر في التعرف على المادة المتاحة والمعطيات المتوفرة وتحسس الفروض التي يمكن اشتقاقها من تلك المادة.

وتأسيساً على هذه الأهمية والاهداف التي يسعى إليها مسح التراث كإجراء منهجي في تصميم البحوث الاستطلاعية ، قد تثار تساؤلات مؤداها : ما هو هذا التراث الذي نقدم على مسحه ؟ وأين نجده؟ وكيف يمكن مسحه والإفادة منه ؟

والواقع أنه إذا سلمنا بأن الهدف العام للبحث الاستطلاعي يتمثل في محاولة بلورة فروض عملية تتعلق بمشكلة جديدة بالنسبة لنا أو مشكلة أخري تقل خبرتنا النظرية أو التطبيقية بها ونريد أن يزداد فهمنا لها من خلال هذه الفروض ، فإن حديثنا السابق عن الفروض العلمية ومصادر تكوينها ، التي تنحصر في نتائج البحوث السابقة ، والنظريات العلمية ، والكتابات

الأدبية والتاريخية والفلسفية ، قد يساعدنا في التعرف على طبيعة التراث الذى ينبغي أن نرجع إليه ونجرى الاستعراض اللازم لهذه الدراسة الاستطلاعية.

إذ هناك مصادر متباينة تمدنا بالمزيد من المعلومات المتعلقة بنتائج البحوث السابقة وخلاصة المناقشات النظرية وتصدر في صور بحوث أو مقالات علمية أو ملخصات أو غيرها ، ويمكن أن نذكر من هذه المصادر : الفهارس Indexes والملخصات Abstracts ، والقوائم البيلوجرافية Bibiografy والمجلات والدوريات العلمية Journals والكتب والمراجع العلمية Texts.

وقد يعتقد البعض أن مسح القوائم البيلوجرافية سوف يستغرق وقتا طويلاً وأن الباحث سوف لا يعثر على بحث له دلالته وأهميته فيما يتعلق بالميدان الذى يهتم به . والواقع ان هذا الاعتقاد بعيداً عن الصواب ، وربما كان الذين يتمسكون به هم أولئك الباحثون الذين يفشلون في بناء جهودهم استناداً إلى جهود باحثين سابقين عليهم . إذ ليس هناك ما يبرر القول بعدم توفر مادة وثيقة الصلة بالموضوع ، بدون البحث المتكامل فى نطاق المجالات التي يحتمل أن تضم مقالات حول الموضوع المختار للدراسة .

وكذلك بغير البحث في نطاق منشورات من نوع الملخصات والقوائم البيليوجرافية وقوائم رسائل الدكتوراه التي أجيزت في الجامعات والتي وضعت نسخ لها في كافة المكتبات وكذلك ملخصات الرسائل التي تمدنا بها أجهزة الميكروفيلم والبحث . هذا فضلا عن مصادر أخرى حكومية وتنظيمات غير رسمية أو تطوعية والتي تقوم بنشر قوائم أو ملخصات للبحوث التي تجري في ميدان اهتمامنا ، والتي تصدر مجلات تضم تقارير للبحوث حول مثل هذه الموضوعات أو القضايا ذات الصلة بالعلاقات الاجتماعية أو غيرها ، إذ تعتبر التنظيمات المهنية وجماعات البحوث ، والتنظيمات التطوعية بمثابة مصادر للمعلومات المتعلقة بالبحوث غير المنشورة في ميدان اهتمامها .

وقد يجانبنا الصواب عندما نحصر أنفسنا في مسح نتائج البحوث والدراسات التي لها صلة مباشرة بالموضوع الذى يشغل اهتمامنا ، وربما كانت هناك وسيلة أخرى أكثر إثماراً في تنمية الفروض أو تكوينها تتمثل في محاولة مسح المفاهيم والنظريات التي تمت بلورتها في ميادين أو سياقات للبحث مماثلة أو مغايرة تماماً عن الميدان الذي ينشغل بدراسته الباحث. وهكذا قد تمدنا النظرية المتعلقة بمستويات التوافق والتي تمت بلورتها في نطاق دراسة المشكلات السيكولوجية بمماثلات مثيرة تفيد المهتمين بدراسة العوامل ذات الفعالية : وقد تمدنا نظرية مستوى الطموح بأفكار مناظرة يفيد من يدرسون الأهداف المتغيرة في المجتمع المحلي ، وكذلك قد تمدنا نظرية التعليم بشيء من الفهم والاستبصار بالعمليات ذات الصلة بتغيير اتجاهات الفرد ، وبمفهوم الدور ، والاغتراب السياسي والمعايير الاجتماعية ، والحاجات السيكولوجية ، والاحباط ، وبناء الجماعات وغيرها من الموضوعات التي قد توجه انتباهنا نحو المتغيرات الهامة في كثير من المواقف الجديدة التي يمكن أن تخضع للدراسة .

كما تعد الاوصاف الحساسة التي تنطوي عليها الكتابات الأدبية والتاريخية والفلسفية خاصة التي وضعها المألوفون ذوي القدرات الخلاقة بمثابة مصدر خصب للفروض التي تحتاج إلى دراسة . إذ يمكن للمشتغلين بالعلوم الاجتماعية أن يستفيدوا من ثراء أوصاف الروايات الأدبية ، كما أنه قد يجدون في التراث الأدبي العالمي كثيراً من الإشارات أو التلميحات المثيرة والمتعلقة بالمتغيرات الهامة في المواقف التي يرغبون في دراستها ، فمثلاً تنطوي الكتابات (آلان باتون) (Alan Paton) بعنوان الصرخة ويلد المحبوب ، ومؤلف (جان بول سارتر) عن صورة المعارض ، وكتاب (ريتشادر رايت) عن الأبن الوطني ، وكتاب (الدريدج كليثر) عن روح فوق الجليد ، تنطوي كلها على تحليلات متعمقة توضح أسباب التعصب ونتائجه.

اسئلة المحاضرة

السؤال الاول:

((ينصب التركيز الأساسي للبحوث الاستطلاعية على اكتشاف الأفكار الجديدة والاستبصار المتباينة التي تعين على فهم المشكلة المدروسة في البحث))

تحدثي / تحدث بالتفصيل عن أهداف البحث الاستطلاعي وأهميته.